ألبير آرييه

«عندما أصبحت عضوا فى منظمة ايسكرا اصطدمت أنا وعدد من زملائى مع مسئولتنا لأنها كانت تتعامل معنا بطريقة مستبدة فقررت سحب عضويتنا وتحويلنا إلى مرشحين وعندما فقدت عضويتى بالتنظيم أحسست أنهم سلبوا منى قطعة مهمة من حياتى».
ألبير آرييه

ولد ألبير فى عام ١٩٣٠، الأب جاك إبراهيم قادم من تركيا لكن أصل الأسرة يأتى من إسبانيا حيث طرد جميع اليهود بعد انتهاء الحكم العربى فى الأندلس فتكرس الاضطهاد للمسلمين واليهود على السواء، وفى عام ١٩٢٤ حصل الأب «وكان رعية عثمانية» على الجنسية المصرية، وكذلك الأم.

أتت بداية التوجه اليسارى عبر أخته التى كانت مرتبطة بالنوادى اليسارية التى تكاثرت فى قاهرة هذه الأيام، وفيما كان فى العاشرة كان يعيش مع أخته حالة العداء للنازية والفاشية وبذور الكلمات الاشتراكية، وفى الحادية عشرة من عمره أعطته أخته رواية «الأم» لجوركى وبعدها كتبا وروايات أخرى.

وفى مدرسة الليسيه فرانسيه وجد مناخا واسعا للحرية وصداقات حميمة مع شبان مثله يكرهون النازية ويوشكون أن يعشقوا الاشتراكية، والأسماء كثيرة: محمد سيد أحمد، توفيق حداد، فؤاد حداد، إلهام سيف النصر، جمال غالى، روبير ستون وآخرون تجمعوا، نشطوا معا فى إطار تجمع طلابى يمكن وصفه بأنه ليبرالى متجه نحو الاشتراكية، وكان مدير المدرسة يحتار فى كيفية كبح جماح هؤلاء الطلاب الذين يأتى أكثرهم من عائلات أرستقراطية، ومن ثم لا يمكن المساس بهم، وفى سن الخامسة عشرة أحست أخته أن الثمرة قد نضجت فسلمته لزميل لها، كان عضوا فى منظمة أيسكرا اسمه هانز بيكسفيلد «نمساوى الجنسية، غادر مصر عام ١٩٤٨ إلى فرنسا وأصبح فيما بعد أحد قادة حزب

الخضر» وأصبح الفتى شيوعيا، لكنه ما لبث أن احتج هو وعدد من زملائه على استبداد المسئولة فسلبتهم عضويتهم واستبعدوا ليصبحوا مرشحين بعد أن اتهمتهم بأنهم فوضويون.

يقول ألبير: «عندما فقدت عضويتى أحسست أنهم سلبوا منى قطعة من حياتى»، لكنهم ما لبثوا أن أعادوه إلى الحياة بعد الوحدة «ربما ليزيدوا من عدد أعضائهم فى التنظيم الجديد».

وانطلق الرفيق أرتين «اسمه الحركى الأول وبعدها أصبح الاسم موريس» فى نضال جماهيرى بما يشبه حمام التمصير، فقد كلف الاشتراك فى حملة مكافحة الكوليرا، وانطلق مع رفاقه لتنظيف الحارات الفقيرة، ينظفونها مع السكان ويشرفون على التطعيم ضد الكوليرا.. ثم شارك بحماس فى نشاط «الجمعية اليهودية لمناهضة الصهيونية» ووزع منشوراتها فى منطقة وسط القاهرة، وفى هذه الأثناء حصل على ليسانس الحقوق الفرنسية.

كان ألبير قد تلقن كورسات ومحاضرات فى كيفية الحفاظ على أمن تحركاته وحماية أمن الأجهزة والاجتماعات وتفوق على الجميع، ومن ثم أصبح واحدا من أهم كوادر الأمن التنظيمى وأصبح الاعتماد عليه فى ذلك عمله الأساسى.. الحفاظ على الأمن الحزبى، حماية الأجهزة الفنية، ترتيب اجتماعات القادة الهاربين من الأمن، وأدار ذلك كله بكفاءة جعلت الجميع يعتمدون عليه فى ذلك، وفى عام ١٩٥٣ كان نشاط «حدتو» واسعا فى تأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية، والتى ضمت عديدا من الوفديين وبعض أعضاء «مصر الفتاة» وشخصيات عامة منهما أبو بكر حمدى سيف النصر، والضابط مصطفى كمال صدقى، وتحية كاريوكا، وكانت الضربات تتوالى على «حدتو» بهدف تصفيتها نهائيا، وتمثلت هذه الضربات فى حملات للقبض الجماعى، حيث كانت كل حملة تشمل أعدادا كبيرة غير معتادة، وكذلك التركيز على آلات الطباعة بهدف إسكات صوت التنظيم، وكان ألبير هو العلاج لكل ذلك، فعن طريق الوفديين أمر النحاس باشا بتسليم ماكينة رونيو للتنظيم، ثم جرى إحضار مطبعة من الإسكندرية، حيث تم تفكيكها هناك ونقل أجزائها قطعة قطعة، وتم نقلها إلى فيلا فى الهرم خلف مبنى المحافظة حيث جرى تركيبها، وتولى الطباعة اثنان.. شيوعى هو حليم طوسون ووفدى هو إبراهيم حسين، ويقوم ألبير بنقل

المطبوعات بنفسه لتسليمها إلى محمد الخياط مسئول الاتصال المركزى.

كان ألبير يدرك مدى إصرار عبدالناصر على تصفية «حدتو» ونشاطها الجبهوى، ومن ثم كان يواجه ذلك بنظام أمنى محكم ومحاولة الإفلات هو وجهازه المعاون من أى مراقبة، وكان الأمن يطور من نشاطه وأجهزته وبدأ لأول مرة فى استخدام أجهزة التتبع باللاسلكى، ورغم ذلك اكتشف ألبير هذا النمط الجديد، لكن الوقت كان قد فات فقد أمسك الأمن بكثير من الخيوط.. وكانت حملة القبض على الكثيرين، وتبدأ رحلة ألبير مع السجون، لكنها بداية ليست ككل البدايات فقد أخذوه إلى أبشع السجون وأكثرها سوءا.. السجن الحربى، وهناك استعاد ألبير كل خبرة التثقيف الذاتى الذى أعد نفسه به، فقد قرأ طويلا عن خبرة الشيوعيين فى مواجهة الاستجوابات والمحاكم ومنها كتاب ألفه محام فرنسى شيوعى بعنوان «الدفاع يتهم» تحدث فيه عن محاكمات الشيوعيين الفرنسيين وعن محاكمة النازى للرفيق ديمتروف، وهكذا دخل الفتى ابن الثالثة والعشرين أتون اللهيب دفعة واحدة، ويقول: «كانت الليلة الأولى فى السجن الحربى أسوأ أيام حياتى، زنزانة بلا شباك والكلبشات تقيد يدى» لكنه استعاد كل ما قرأه وقرر الصمود.

ويستند ألبير أيضا إلى أبيه «جاك آرييه»، وكان يمتلك أول وأشهر محل للملابس الرياضية فى مصر «نيو لندن هاوس» فى ميدان مصطفى كامل، ومن هناك تعرف الأب إلى الكثيرين من المسئولين الذين حاولوا تخفيف الوطأة على الابن، لكن للسجن الحربى قوانين تأتى فوق كل شىء، وبدأت التحقيقات، واجه المحقق بثبات من تعلم على يدى ديمتروف، والقاضى العسكرى الصارم اللواء الدجوى لم يستمع إلى أدلة أو إلى دفاع.. أحكامه جاهزة نال منها ألبير ٨ سنوات أشغالا شاقة، وتعنى أن يقيد بحزام من الحديد فى وسطه، وتمتد القيود الحديدية لتربط الساقين، وتعنى أيضا تكسير الأحجار فى الجبل، ثم يبدأ النضال لتحسين الأوضاع، ومن ثم إضراب عن الطعام، وهو أمر غير معتاد فى سجن طرة، الأمر الذى دفع النظام إلى ترحيلهم بعيدا، فى الواحات، وهناك كان ألبير أستاذ فن الأمن الحزبى، يهرب كل شىء إلى السجن ومن بين ما قام بتهريبه راديو كبير جرى تأمينه بإحكام وظل حلقة الوصل بالعالم، وكان يشرف على تهريب الرسائل إلى الخارج مغلفة بطريقة مبتكرة، حيث أقيمت ورشة تجليد، ويتم إرسال المخطوطات مكتوبة على ورق البافرة داخل الغلاف، وهناك كان أيضا مسئولا عن العجين، فجرا يستيقظ

ليسهم فى عجن الدقيق، كما بدأ فى أولى تجارب لزراعة الحوش الرملى واستطاع أن يطوع الحياة لتصبح مثمرة وتنتهى السنوات الثمانى التى مر فيها بأصعب الأوقات، فقد توفى أبوه الذى كان سندا حقيقيا. لكن السنوات الثمانى لم تكن كافية فى نظر الأمن فيصدر قرارا باعتقاله ليمتد السجن إلى ١١ عاما ويخرج فى ١٩٦٤ ليواصل كل ما كان من عمل صامتًا وهادئًا، متمسكا بالموقف والمبدأ، ولم يزل مقدما خدمات جليلة دون أن يهتم بأن يعرفها أحد.

لكننى؛ وقبل أن أنهى هذه الكتابة أريد أن أقدم لألبير كل الشكر على ما أسهم به من إسهامات كبيرة ومخلصة فى تجميع المعلومات والحوارات والوثائق الخاصة بدراستى لتاريخ الحركة الشيوعية المصرية، وهى إسهامات تمتد من ذاكرة قوية ومرتبة إلى قيامه نيابة عنى بمقابلات عديدة فى باريس أجرى فيها حوارات مع عديد من مؤسسى النشاط اليسارى المصرى منذ بداية الثلاثينيات من القرن الماضى إلى وثائق شديدة الأهمية، بحيث يمكننى أن أعترف أنه من دون إسهاماته المخلصة معى ما كان يمكن أن أستكمل هذه الدراسة.

عزيزى ألبير.. شكرا لما قدمته لنا جميعا.. ولى شخصيا.